كتب

في روايته الصادرة حديثًا، يتقصّى الكاتب الأردني خالد سامح الخيارات السياسية المنتهَجة من شخصيات كانت محسوبة على الثورة الفلسطينية، والتي انتهت إلى اتفاقيّات تسوية و«سلام» مع العدوّ، قارئًا انعكاساتها الاجتماعية في خلق طبقة انتهازية

بازار الفريسة تحوّلات مشبوهة قادت إلى عمليّة «السلام»

طبقة تُناضل من أجل نفسها

هشام البستاني

على غير عادة الروايات، يَفتتح الكاتب الأردنيّ خالد سامح إصداره الروائي الجديد «بازار الفريسة»، (الثاني بعد روايته «الهامش»، وعدّة مجموعات قصصيّة) برسالة، تبدو عاديّة، ومفهومة، ومقبولة ضمن الأعراف الدبلوماسيّة المعمول بها في كلّ أنحاء العالَم، مُوجَّهة من مساعد وزير الخارجيّة الأميركيّ لشؤون الشرق الأوسط إلى سفير بلاده في العاصمة الأردنيّة عمّان. لكنّ القارئ، وهو يمرّ سريعًا على هذه الرسالة، ويتعجَّب من كونها مدخلًا لرواية، يضع قدمَه مباشرة في حقل الألغام، ويتورّط، من الصفحة الأُولى، فيما أدّى إلى منع توزيع الرواية (صدرت عن «المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر» في 184 صفحة) في بلد كاتبها من دون إخطاره رسميًا بكتاب رسميّ يُشبه تلك الرسالة، فالسّرد الروائيّ، وهو يستلهم ويتخيّل، إنّما ينهل من واقع غير مُعلن لكنّه حقيقيّ، ومعروف، ومؤلِم؛ وبقدر ما تستند الحكاية على أحداث عاديّة ويوميّة وطبيعيّة في صيرورات السياسة في المنطقة العربيّة، يكتشف القارئ كم هي مُذلّة ومؤلمة هذه العاديّة، وهذا الاعتياد، وإلى أيّ حدّ تمّ تطبيعها، واستفحلت، ليُصبح التعامل معها ومع نتائجها ومفاعيلها صعبًا ومعقّدًا.

في الرسالة/ المُفتتَح، تُوجِّه الخارجيّة الأميركيّة سفيرها في عمّان إلى ضرورة فَتْح قنوات التواصل مع سياسيّين وصحافيّين، ورموز من القوى السياسيّة التي أفرزها حدثان مركزيّان في تاريخ البلاد: فكّ الارتباط مع الضفّة الغربيّة عام 1988، وهبّة نيسان الشعبيّة عام 1989 التي عالجتها السلطة سريعًا بإلغاء الأحكام العُرفيّة التي استمرّت عقودًا، ورفع الحظر عن الأحزاب، والدعوة إلى انتخابات برلمانيّة. هي ضربة ذكيّة مُكثّفة من الكاتب، تلحقها ضرباتٌ أُخرى على شكل رسائل أُخرى تُفتتح بها كلّ الفصول التالية، لترسم خريطة طريق اختراق مجتمعاتنا، وشراء مثقّفينا، وإخضاع سياسيّينا؛ خريطة مسار القوّة الناعمة، ومدّ أذرُع الهيمنة الخارجيّة من خلال مؤسسات الدراسات و«المنظمات غير الحكوميّة» والتمويل المرتبط بالسفارات الأجنبيّة والمانحين، وبتسهيلات مباشرة من المجموعات الحاكمة التي تعرف عن مثل هذه المسارب، وتعتبرها نوعًا من الوصل المستمرّ بمراكز القوى، وبابًا خلفيًا للتواصل معها وتلمّس مطالبها، بل إنّها - في أحيانٍ كثيرة - تنخرط هي نفسها في إنشاء مثلِ هذه المؤسسات المتموّلة للحصول على هذا التمويل، ورفد جيوبها به.

هكذا، تتحوّل رواية بسيطة الحبكة، تُلاحق من خلالها أرملةٌ سيرة زوجها الرّاحل القياديّ (سابقًا) في الثورة الفلسطينيّة، والمستقرّ (لاحقًا) في مركز دراسات بعمّان، إلى رحلة عامّة في الزواريب الخلفيّة للتبعيّة والخيانة والعمالة والفساد، ورحلة موازية خاصّة في كيفيّة تجاهل مثل هذه المنغّصات للاستمرار بالتنعّم بما أنتجته من ثروة وجاهٍ ومكانة، عبر رحلة صعود طبقيّ تكون (في المحصّلة النهائيّة) هي الغرض الرئيسيّ لنضالٍ يتمحور حول الذات لا حول القضيّة، مرسوم المسار سلفًا، ليمرّ عبر اتفاقيّات ومعاهدات سلام، يكون النضال السابق مُمهّدًا لها، والتنازل اللاحق نتيجة منطقيّة تتورّط أطرافه فيها وتدافع عنه بالأنياب والأسنان والجرائم.

مسارٌ ليس بريئاً

في الكثير من عباراتها تُحيل «بازار الفريسة»، للكاتب خالد سامح، إلى مَشاهد شبيهة وقعت في سياق الثورة الفلسطينيّة والتحوّلات التي لحقت بها. وهذا ما يجعل من الرواية نوعاً من الإدانة الخافتة، لكنّها الماحقة والكاشفة لمرحلة تاريخيّة أثبتت مآلاتها، وبالدليل التاريخيّ، أنها كانت مساراً ليس بريئاً نحو التدمير الذاتيّ والإثراء الشخصيّ، فلا عجب بعد هذا ان تقوم السلطة بمنع الرواية.

رحلة الأرملة (هالة، كاتبة ومخرجة مسرحيّة لبنانيّة، ورئيسة لمنظّمة نسويّة) وهي تنبش في سيرة زوجها (رشيد، كاتب ومالك مركز دراسات وأبحاث، ومناضل سابق نافذ في الثورة الفلسطينيّة) هي رحلة انتهازيّة وأنانيّة أساسًا، فالإشاعات التي بدأت تتناثر عن رشيد بعد موته كدّرت عيشها ونالت من سُمعتها ونغّصت عليها نعيم الاستفادة من الأموال والأملاك التي تركها لها، بعد أن مرّت، بمعيّته، من الشّقاء إلى الرّخاء من دون أن تسأل أو تتساءل، فهي تعيش الدّور أيضًا من خلال تروُّسها لجمعيّة تُعنى بحقوق المرأة، مُموَّلة بدورها من السّفارات إيّاها التي تموّل مركز أبحاث زوجها، تفتتح المؤتمرات عن «المرأة صانعة القرار» (نتذكر هنا صانعات القرار من نوع مادلين أولبرايت وكوندوليزا رايس وأمثالهنّ ممنّ شارَكن في صُنع قرارات مثل قصف ملجأ العامريّة وغزو العراق وتجويع نسائه وتمويتهنّ بالحصار والأمراض، ودعم «إسرائيل» وإبادتها للفلسطينيّين، نساءً وأطفالًا ورجالًا)، والمشكلة عندها لا تتعلّق بتاريخ زوجها المشبوه، بل بأثر الفضيحة المتصاعدة عنه على حياتها المُرفَّهة.

حبكةٌ تنهَلُ من واقع غير مُعلَن لكنّه حقيقيّ ومُؤلِم

شريحة مُنتفعة استعاضت عن «شقاء» الثورة برخاء الثورة

تبرع الرواية في تصوير هذه الطبقة المناضلة (من أجل نفسها) والمتحوّلة طبقيًا وسياسيًا، والتي نُعاينها يوميًا ونعرفها من قُرب، مثلما تبرع في تشريحها وهي تعود إلى الأصل الذي تخلّت عنه وباعته، من أجل معرفة نفسها، ومعرفة الحقيقة؛ فالمنبت هو المكان الذي ستتوجّه إليه هالة لتسأل عن الشُّبهات، وتحاول (من خلاله) أن تُنظّف سُمعة زوجها، ثم سمعتها. لعبة الاستعانة بالمنبت/ الأصل، الماضي النضالي الوطنيّ للفاسد، لتنظيف سمعته، والتدليل على استمراريّةٍ ما مُشتقّة منه للتعمية على القطع والتحوُّل، بل الانقلاب الحاضر، هي لُعبة ذكيّة أحسنَ الكاتب استغلالها واستعمالها والإشارة إليها في سياق عمله الروائيّ، وأحسن استخدامها لإظهار التباينات بين ما كان، وما هو كائن الآن؛ وسيشعر القارئ بنوع من الدّراية والمعرفة بمثل هذا النوع من الأشخاص والمآلات، وهو ما يحسب للرواية التي اختارت الاشتباك مع المعاصر، الآني، بدلًا من الشكل الرائج الآن من الكتابة الروائية، الذي يختار التاريخيّ للهروب من الاصطدام المباشر مع الحاضر، ومن ثم مع السّلطة، والإبقاء الدائم على فرص نيل حظوتها وجوائزها.

تدخل «بازار الفريسة»، باعتبارها معرضًا كاشفًا للتحوّلات، إلى مآلات الجيل الثاني من هذه المجموعة المتحوّلة، فهُم جيل مُنبَتّ مقطوع الصلة إلّا بذواتهم ورغباتهم، يبحثون عن الملذّات الشخصيّة، ويغرقون في عدميّة ذاتيّة، فأحد أبناء رشيد وهالة مُدمن مخدّرات، والثاني (الأنجح) مُقيمٌ في دبيّ (بالتأكيد)، يُخطّط للزواج من مديرته الإنكليزيّة الأكبر منه في العمل لحيازة جنسيّتها، ولا يبدو مُهتمًّا لمصير أخيه أو أمّه أو الشبهات التي تُحيط بسيرة والده.

ولا تغفل الرواية، التي تقع أحداثها في عمّان، عن مكانة هذه الأخيرة مقرًا، ومستقرًا، وموقعًا خلفيًا، ينسحب إليه الثوريّون القدامى، وأبناؤهم، وزوجاتُهم، الذين صاروا (بحكم مواقعهم الجديدة) متعاونون مع عدوّهم السّابق، واتّخاذهم من أحيائها الرّاقية منازل وقصورًا ومقرّات للبزنس والتمويل، بعد أن كانت - في يوم صار بعيدًا - مقرًا لتنظيماتهم الثوريّة؛ مثلما لا تغفل عن مصير الثوريّين الأنقياء الذين صاروا أشخاصًا هامشيّين منسيّين مُخلِصين لفَقرهم ونقائهم، وتُعرِّج على المؤسسات الثقافية التي هي - في حقيقتها - امتدادٌ للسّلطة، وذراعٌ من أذرُعها، تحتفي - بصورة أرتب وأكثر أناقة - بالمشبُوهين والمُحيطين بهم، مُسبِغة عليهم هالات إضافيّة كاذبة من الأهمّية والضرورة.

في جملة مركزية من جُمل الرواية، ثبَّتها الكاتب على غلافها الخلفيّ، يتساءل رشيد، وهو ينتقل من منزل إلى آخر أيّام الثورة، حاملًا معه خريطة فلسطين، «مُبروَظة» في إطار ذهبي، أهداه إيّاها أحد أقاربه: «يااااه، لمتى رح نبقى حاشرين فلسطين بخريطة، نحملها معنا، نصلبها على كلّ الجدران؟». تُحيل هذه الجملة مباشرة إلى مشهد شبيه في سياق الثورة الفلسطينيّة وتحوّلاتها اللاحقة، مشهد بوسترات الشهداء، الفقراء، الأنقياء، الأطهار، المُعلّقة على الجدران، مقابل الصورة التذكارية لقائد الثورة، مُصافحًا أحد جلّادي شعبه، في البيت الأبيض، مصافحةٌ سيذهب ثمنها المزيد والمزيد من أبناء شعبه الفقراء، والمزيد من أراضي وطنه، مثلما تُحيل إلى هواية رشيد بعد أن صار وتصوَّر: جمْعُ التحف والتماثيل والأنتيكات التي يتصالح هو مع تناقضات ما ترمز إليه تلك التحف، مثلما تصالح مع تناقضاته. «بازار الفريسة» إذًا هي نوع من الإدانة الخافتة، لكنّها الماحقة والكاشفة، لمرحلة تاريخيّة أثبتت مآلاتها، وبالدليل التاريخيّ، أنها كانت مسارًا ليس بريئًا نحو التدمير الذاتيّ، والإثراء الشخصيّ، والسّلطة، فلا عجب إذًا أن يقوم «مَن على رأسه بطحة»، وفي هذه الأيام خاصة التي تتعرّض فيها غزّة لمجزرة رهيبة، بمنع الرواية التي ستدفعهم إلى التّحسيس عليها.

(كاتب من الأردن)

خالد سامح

نظرة أولى

ضمن سلسلة «عالم المعرفة» التي تصدر عن «المجلس الأعلى للثقافة والفنون» في الكويت، صدرت الطبعة العربية من كتاب **نهضة الرواية الأفريقية: طرائق الهوية واللغة والنفوذ** للناقد الكيني الأميركي موكوما وانجوجي، بتوقيع المترجم صديق محمد جوهر. يُشكّل الكتاب اختراقاً جديداً في مجال النقد الأدبي العالمي، حيث يرصد تاريخ الرواية الأفريقية الذي يجمع بين التقاليد والحداثة، علاوة على مناقشته أعمالاً من أدب الشتات الأفريقي على ضوء مقاربات تشتبك فيها قضايا التعددية اللغوية والعِرق والهوية والجنس ونظرية ما بعد الاستعمار.

للشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي، صدرت طبعةٌ جديدة من كتابه **شاعرٌ يمرّ** عن «دار الرافدين». يتضمّن العمل نصوصاً كُتبت، مثلما يقول صاحبُها، في «صورة يوميات راعت التسلسلَ التاريخي، تتخلّلها تأمّلات حول الكتابة ونهر الزمن وحال العالَم المُقلِق ومصائر البشر بما فيها مصيري»، ولكنّها اتّخذت شيئاً فشيئاً وجهةً غير مُتوقّعة، فـ«شرعتُ في مراجعة جوانب كاملة من حياتي. لقد أدّت شقلَبة العلاقة مع الزمان ومع المكان إلى تغيُّر في نوع السرد الذي انخرطتُ بادئ الأمر فيه فأصبحت النتيجة مادّة أدبية مجهولة الهوية».

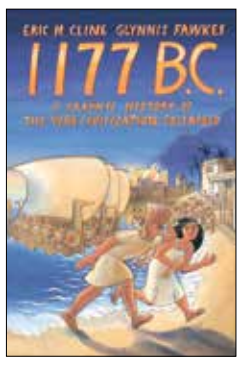

1177 **قبل الميلاد: تاريخ مُصوّر للسنة التي انهارت فيها الحضارة** عنوان الكتاب الذي صدر للباحث إريك إتش. كلاين والرسّام غلينيس فوكس عن «منشورات جامعة برنستون». تروي القصة المصوّرة نهاية العصر البرونزي قبل نحو ثلاثة آلاف عام حين انهارت ممالك عدّة شرقي البحر الأبيض المتوسط، ومنهم المينويّين والميسينيّين والحثيّين والكنعانيّين والآشوريّين والمصريّين، فقد شهدت الحضارات القديمة أحداثاً كبرى متزامنة، إذ ضربت الزلازل في البرّ الرئيسي اليوناني، والجفاف والمجاعة في هضبة الأناضول، وتعرّض شمال سورية للغزو، وفلسطين لحركات تمرّد.

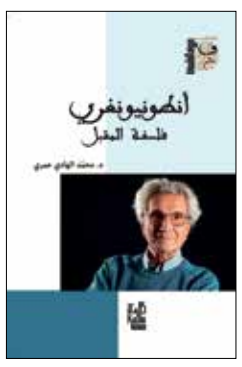

يذهب الباحث التونسي محمد الهادي عمري في كتابه **أنطونيو نغري: فلسفة المُقبل**، الصادر عن «دار كلمة»، إلى أقاصٍ مفتوحة على فكر لا يرى في الوعي مُقوِّماً للأشياء مثلما تزعم المثالية، ولا في نظام الأشياء سابقاً على الوعي كما تعتقد الواقعية. ثم إنّ المُقبل، كما يتجلّى عند المنظّر الإيطالي (1933 - 2023)، فلسفةٌ بلا زمن، المُقبل لا يكون إلّا صيغة يُقاوم بها الفعل حركة الماضي القاسية. المُقبل الفلسفي هو الانفجار الصامت الذي أسكتته الأنساق الفلسفية الكبرى؛ هو ذلك البعيد - القريب، حيث المقاومة محايثة لذاتها وموضوعها.

صدرت عن «دار الروافد الثقافية» و«ابن النديم» في بيروت، النسخة العربية من كتاب بعنوان **التحديق في الشمس... التغلّب على الرعب من الموت**، للكاتب والطبيب النفساني الأميركي إرفين يالوم، بترجمة خالد الجبيلي. يتناول الكتاب مسألة الموت بأسلوب سردي يمزج بين علم النفس والفلسفة، من خلال العودة إلى معنى الموت منذ بداية التاريخ، التي عبّر عنها البطل البابلي جلجامش عند موت صديقه إنكيدو الذي تحوّل إلى ظلام على حدّ وصفه، وأنه خائف من الموت؛ الخوف الذي حاول الفلاسفة تفسيره، وفهم أسباب التوتر التي تصيب البشرية من فكرة الفناء.

للشاعر الكردي شيركو بيكه س (1940 - 2013)، صدرت عن «دار المدى» الترجمة العربية من روايته الشعرية **مقبرة القناديل**، التي أنجزتها المترجمة هيوا عثمان وقدّم لها الروائي علي بدر. من غلاف العمل نقرأ: «يستدعي هذا النص التاريخ والفلسفة طبقةً فوق طبقة، كما يستدعي حوارات ثقافية عديدة، صراعات مثقفين وأحاديث بسطاء، تنافُسَ قوميات وطوائف، وفقرات من تاريخ قريب بعيد، آثار حركات منتصرة وانكسارات، قصصاً فلكلورية وفقراتٍ مبعثرة، إنه اكتظاظات شتّى لصيغ صريحة وقاسية، هو تاريخ واقعي يستدعينا بقوّة... يستدعي شرقنا بكل سجونه وشجونه».

عن «دار الخليج للنشر والتوزيع»، صدرت طبعة جديدة من كتاب **إسرائيل: كيان مُختلَق والعدو الحقيقي لليهود** للباحث الفلسطيني محمد علي الفرّا. يعود المؤلّف إلى وثائق ومرجعيات تاريخية تُشير إلى تحالف الصهيونية مع النازية خلال الحرب العالمية الثانية، والذي ساهم بدوره في إجبار اليهود حول العالَم على الهجرة إلى أرض فلسطين، كما يُضيء قيام الصهاينة الأوائل باختلاق الشعب اليهودي، ويقدّم الأدلّة على أن الكيان الإسرائيلي خارجٌ على جميع الأعراف والقوانين، الأمر الذي يجعل من «إسرائيل» العدوّ الحقيقي لليهود، منذ تأسيسها حتى اليوم.

يُحاول الباحث المغربي عبد الإله بلقزيز في كتابه **المتغيّرات والصيرورات: قراءة في معطيات عالم متحوِّل**، الصادر عن «مركز دراسات الوحدة العربية»، تقديم رواية نقدية عن الأوضاع العربية الراهنة ومطالعة التغيُّر الهائل الذي يشهده العالَم ويُفضي إلى إعادة تشكيل ملامح جديدة له. يلفت المؤلّف إلى مفارقة ما يصفه بالتهالُك العربي المصحوب بالانسداد في الآفاق والافتقار إلى القُوى والأدوات والبرامج والخيارات، مقابل صعود قوى أُخرى من محيطنا الجنوبي كانت أوضاعُها إلى عقود قليلة خلت أشبه بأوضاع العربية، بل أسوأ أحياناً.